حوار

أمير تاج السر: زمـ

الكاتب السوداني مفتونًا بشهوة الحكي والتاريخ المتخيل

أمير تاج السر! هل هذا هو اسمه الشخصي حقاً؟ لوهلة، سنظن أنه اسم إحدى شخصياته الغرائبية التي تحتشد بها رواياته. لكنه، على أي حال، يوقع كتبه بهذا الاسم، وينبغي أن نخاطبه به. أقله إلى نهاية هذا الحوار معه. لا نعلم من أين أتى بكل هذه الشخصيات، وكيف انتهت إلى هذه المصائر التراجيدية؟ يجزم صاحب «صائد اليرقات» بأنه لم يبتكر هذه الشخصيات، إنما التقطها من تجاربه الشخصية، قبل أن يعود إلى صوغ مصائرها بجرعات إضافية من التخييل. لذلك، فإن واقعيته السحرية كما تتبدى للمتلقي هي نتاج بيئة محلية في المقام الأول، هو الذي عاش فترات متقطعة من حياته بين أقاليم السودان وقراه كطبيب جوال، قبل أن يضطر إلى الهجرة نحو بلاد أخرى، فيما ظلت هذه الفضاءات تطارده بإلحاح لتدوينها وتحريرها من حقلها الشفوي بوصفها ترجيعاً لمشهديات خبرها عن كثب، سيصوغها لاحقاً بدمغة حبر مختلف، عدا مخزونه الشخصي من التجارب الحياتية. لجأ أمير تاج السر (1960) إلى مناوشة التاريخ من موقع مضاد تحت بند «المتخيل التاريخي»، ناسفاً الأرضية الأولى للوقائع لمصلحة لذة الحكي وحدها. هكذا اقتحم المشهد الروائي العربي بحضور لافت، سواء لجهة الغزارة

■ لنعد إلى مرجعياتك الأولى، كيف اكتشفت القراءة، الكتاب الأول الذي هزّك بعنف؟

اكتشفت القراءة مبكراً جداً. كان ذلك عن طريق برنامج قرائي وضعه والدي، وهو أن نقرأ كلنا، أي أبناؤه الأطفال الذين تعلموا قليلاً وأمكنهم القراءة، كتاباً أسبوعياً، يأتينا يوم الاثنين من كل أسبوع، عن طريق صاحب مكتبة. كان يأتي حتى البيت، يلقي الكتاب من فوق الحائط، ونكون بانتظاره لنتلقفه، لأنه كان يأتي في العصر. كنا نتعارك من أجل الحصول على الفرصة الأولى. مضى الأمر حتى اكتشفت طريق المكتبات، وصرت أتجول بين رفوفها، وأشتري كتبي، وكان الكتاب الأول الذي هزّني فعلاً وقرأته بمتعة، نسخة قديمة من «كليلة ودمنة» لابن المقفّع، وجدتها في مكتبة والدي. هذا الكتاب عرّفني على صنعة الخيال فعلاً، ذلك الذي سيصبح مرافقاً لكتابتي في ما بعد. ثم قرأت «ألف ليلة وليلة» بالشغف نفسه، بالإضافة إلى كتب كثيرة جداً، في الأدب والفكر والرحلات، لكن ظلت اكتشافاتي الأولى هي ما يفرحني كلما تذكرت ذلك.

■ من الذي قادك أولاً، إلى شهوة الحكي، هل هناك «راوي حكايات» في بيئتك الأولى وجّه خطواتك نحو الكتابة؟

نحن أصلاً قوم حكاؤون، والدي كان يحكي قصصاً على الدوام، ومواقف مرَّ بها، وكان من الممكن أن يصبح كاتباً مرموقاً، لكنه لم يفعل، لم يكن لديه حماسة للكتابة، فقد كان أباً عادياً، صارماً، في أحيانٍ كثيرة. فقط يحكي، وكنت أستمع لحكاياته بإمعان، وقد ظلّ في ذاكرتي أشياء منها إلى اليوم. أمي كانت تحكي أكثر، وكانت تتحدث عن وقائع أشبه بالأساطير، حدثت في قريتها في شمال السودان، تروي تلك القصص بمتعة وأحسبها تضيف إليها نكهة جميلة. أخوها الأكبر الطيب صالح، الروائي المعروف، ملك الحكايات. وحين كنا يلتقيان عندي في الدوحة قبل أن يرحلا، كنت أستمع لذكرياتهما التي أشبه ما تكون بالروايات، عندي إخوة يكتبون أيضاً، لكن ليست تلك الكتابة الجادة، إنما مدوّنات أشبه بحكايات الرواة الشفاهيين.

■ في روايتك «طقس»، تقول «كان لي قميص حكاياتي الفضفاض. لا أكتب تجارب لا تخصني على الإطلاق»، إلى هذا الحدّ تعوّل على التجربة وحدها في بناء المعمار الروائي؟

نعم، إلى حد ما، وما ورد على لسان الروائي في «طقس» يمكن أن ينطبق عليّ، لقد كنت وما زلت مولعاً بالابتكار، وبما يخترعه خيالي وحده. ذلك الخيال الذي أنمّيه باستمرار، إلى أن صار مع تراكم التجربة، يستجيب لي بسهولة. لا جدال أنني أستمد من الواقع معطيات كثيرة، وأوظفها، وأنني - في الغالب- أبدأ الكتابة من مواقف حقيقية، ثم أتوغل بخيالي، إنها طريقة تروقني بشدة ولا أحس بأي مشكلة معها، حتى التاريخ داخل النص يمكنني تخيّله، والجغرافيا أيضاً، وما أفعله في الروايات التي تتحدث عن فترة تاريخية ما، أنني أقرأ عن تلك الفترة، وأتعرّف إلى الحياة الاجتماعية والسياسية فيها، وشكل البيئة والاقتصاد وتفاصيل أخرى، ثم أكتب حكايتي وشخصياتي من الخيال. ستجد أحداثاً كثيرة، منها حروب ومجاعات وقصص حب لم تحدث قط، لكنها حدثت في متون رواياتي. لو قرأت «توترات القبطي» المستوحاة من كتاب القبطي يوسف ميخائيل الذي عاصر الثورة المهدية في السودان، وكتب عنها يومياته، لعثرت على تلك الإشارات التي ذكرتها، وكنت استوحيت رواية أخرى هي «مهر الصياح»، من التاريخ أيضاً، وكان تاريخاً خاصاً متخيلاً. أعتقد أن الكتابة على هذا المنوال، تتيح فرصة أكبر للكاتب في التحليق، على عكس القيود التي تفرضها شخصيات معروفة تاريخياً. ذلك أن خطواتها محسوبة في الحياة، ويصبح اختراع مسار لها أمراً عسيراً، ومغالطة قد تجرّ إلى إشكالات غير محسوبة.

■ تدين بعض الروائيين بتشويه مهنة الكتابة، وتشبههم بشخصية «عبد الله حرفش» ضابط الأمن السابق الذي راقته فكرة أن يكتب رواية، على غرار التقارير الأمنية التي كان يكتبها ببراعة، كأن روايتك «صائد اليرقات» اتهام علني لبعض الروائيين بأنهم مجرد كتبة تقارير أمنية، وفي أحسن الأحوال، فإن هؤلاء طارئون على المهنة!

لعلك تتفق معي بأن مقولة زمن الرواية التي أطلقت نكاية في الشعر، هي أيضاً، وبال على الرواية. في ما مضى، كانت كلمة روائي مخيفة فعلاً، يشعر الشخص بالتضاؤل والانكماش حين يسمعها أو حين يصادف روائياً، صاحب منجز إبداعي واضح. كانت المقاهي ملجأ للتعرف إلى الروائيين والخشية منهم، والجلوس إلى موائدهم بحذر، وقد تمر أشهر طويلة وأنت تجلس إلى مائدة أحدهم ولا تستطيع أن تتبادل معه كلمة أو تعرض له إنتاجك إن كنت تكتب. شخصياً، كنت أحس بالرهبة وأنا أجلس أمام محمد مستجاب، وعبد الحكيم قاسم، أثناء إقامتي في القاهرة، ولم أصادقهما وأصادق غيرهما إلا بعد زمن طويل. الآن لم نعد نستطيع أن نعرف من هو الروائي، ومن هو الذي ليس روائياً، كل من رغب أن ينتسب إلى نادي الروائيين بإمكانه ذلك، حتى لو كان يفتقد إلى أي مرجعية ثقافية أو أدبية. لقد أسهمت بعض دور النشر في الشوارع الخلفية، في إطلاق سوق كبيرة لبيع الأحلام، لا فرق بين الذي يكتب لأنه أصيب بداء الكتابة، والذي يكتب لأن لا شيء يستطيع فعله سوى

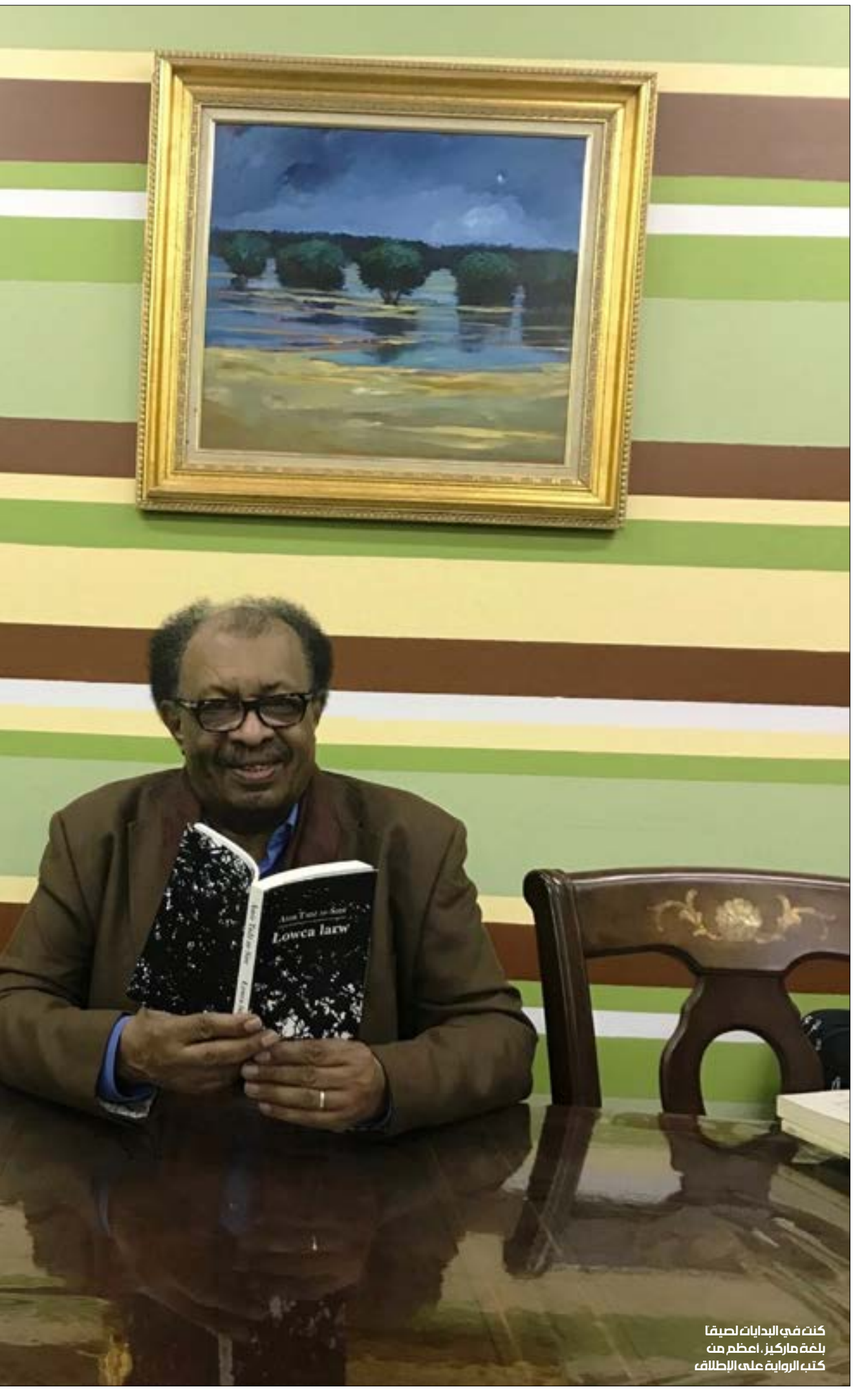

كنت في البدايات لصيقاً بلغة ماركيز، أعظم من كتب الرواية على الإطلاق